القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل
عند عبد القاهر الجرجاني

إعداد

د.محمد عبد الله أبو الرب
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية الأميرة عالية الجامعية

د.عبد العزيز موسى درويش
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية الأميرة عالية الجامعية

مجلة بحوث التربية النوعية – جامعة المنصورة
عدد خاص (٢٠) – فبراير ٢٠١١

القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني

إعداد

د . محمد عبد الله أبو الرب * د . عبد العزيز موسى درويش **

الملخص

تقف هذه الدراسة على مفهوم الإمام عبد القاهر الجرجاني للتمثيل ، وتُظهر كيف مازه عن التشبيه بطريقة تباين ما تناهى إليه البلاغيون ، وهو الأمر الذي حدا بالدراسة إلى الوقوف على نظرات الإمام عبد القاهر في الفرق بين المفهومين وقوفاً تحليلياً ، يأخذ بطرفٍ من النظر المقارن ؛ فعرضت الدراسة إلى مفهوم التمثيل الذي استقرّ لدى البلاغيين أمثال (ابن الأثير والسكاكي والخطيب القزويني) . واحتكمت الدراسة إلى المعنى المعجمي للفظة (التمثيل) محاولةً رصد التفسير الأقرب لروح اللغة ؛ أهو تفسير الإمام الجرجاني أم ما استقرّ لدى البلاغيين؟

واهتمت الدراسة بإبراز القيمة الجمالية للتمثيل ؛ تتجلّى خلالها روعة الصورة إذا ما حللناها وفق مفهوم الإمام الجرجاني للتمثيل ، وكيف أنّ هذه الروعة تخبو بغير هذا المفهوم .

وأظهرت الدراسة ما كان من توارد في الأفكار بين الإمام الجرجاني من جهة وبين النقاد المحدثين والتربويين من جهة أخرى ، فعرضت إلى نظرة الإمام إلى التشبيه المركب من حيث تفكيك المركبات إلى أجزاء ، ثم إعادة بنائها بناءً جديداً ، يخلق مذاقاً يختلف تبعاً للمتلقي ، مما نجده عند النقاد المحدثين وهم يتحدثون عن أثر المتلقي في إبداع النص ، فهم يرون في المتلقي مبدعاً جديداً للنص . وعرضت إلى نظرة الإمام إلى التشبيه الحسي والعقلي ، ورصدت بعض ملامح التوارد بينها وبين حديث التربويين عن المجرد والمحسوس ، وكذلك حديثهم عن الفروق الفردية وتوارده مع حديث الإمام عن تفاوت المتلقين في تأوّل وجه الشبه العقلي .

* جامعة البلقاء التطبيقية كلية الأميرة عالية الجامعية

** جامعة البلقاء التطبيقية كلية الأميرة عالية الجامعية

Research summary

S EDUCATIONAL AND EASTHETIC FEATURES ALJURJANI A STUDY ON REPRESENTATION CONCEPT

The study touches upon Imam Abdul Qaher Al-Jurjani's vision of the concept of assimilation. It also sheds light on the difference that has been noticed by the Imam between analogy and assimilation. The paper uncovers that there is also a difference between Al-Jurjani's views and those of other rhetoricians towards the issue in question. Hence, the research paper attempts to highlight such difference depending on Al-Jurjani's analysis and interpretation. Also, the paper exposes some late rhetoricians' opinions on assimilation. The study highlights the aesthetic value of assimilation along with its impressive rhetorical images as seen and interpreted by the Imam. Moreover, the paper shows that there is a great deal of agreement between Al-Jurjani's views and those of other modern critics and educators on the issue of assimilation. The research tackles compound analogies as viewed by Imam Al-Jurjani who agrees with other modern critics' belief that the recipient plays an important role in the creativity of the text. Furthermore, the paper reveals some points of similarities between Imam Al-Jurjani's opinions and those of some educators about the abstract and the concrete similarity including their argument about individual differences, as well.

Keywords: Arabic, Al-Jurjani, assimilation, analogy, rhetorical images.

القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني

إعداد

د . محمد عبد الله أبو الرب* د . عبد العزيز موسى درويش **

مفهوم التمثيل بين الجرجاني والبلاغيين المتأخرين :

أفرد الإمام عبد القاهر الجرجاني التمثيل من التشبيه ، في مرحلة مبكرة من تطور البلاغة ، فجعله قسما منه ومازه عن التشبيه الصريح (المباشر) ، وأبرز خصوصيته في الدلالة ، واهتم ببيان هذه الخصوصية ، وأنها تتناول إعمال العقل والتفتيش في الطرفين ، والنفاذ إلى الشبه الخفي، الذي لا تراه في المشبه على حدّ رؤيتك له في المشبه به(١).

وقبل أن نمضي في بسط رأي الإمام عبد القاهر الجرجاني في مفهوم التمثيل وما يلقيه هذا المفهوم من ظلال ذات دلالات نفسية وتربوية ونقدية ، نرى من ضروريات البحث أن نعرض عرضا سريعا موجزا لآراء بعض العلماء الذين تحدّثوا عن التشبيه والتمثيل ، وعن معيار الفرق بينهما . وبدايةً نشير إلى أنّ بعض العلماء لم يفرقوا بين المفهومين ، ومن أولئك ابن الأثير صاحب المثل السائر ؛ فقد قرر أنْ لا فرق بين التشبيه والتمثيل(٢) . ولكن ما عليه جمهور العلماء أنّ التشبيه شيء والتمثيل شيء آخر ، فهذا السكاكي يذهب إلى " أنّ التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي، وكان منتزعاً من عدة أمور خُصَّ باسم التمثيل " (٣). فالتمثيل عنده ما توفر له أمران ؛ الأول : أن يكون وجه الشبه أمراً عقلياً تصورياً لا وصفاً حقيقياً . والثاني : أنْ يكون وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد .

وقد وسّع الخطيب القزويني ، الذي لخص مفتاح السكاكي ، دائرةَ التمثيل ؛ فلم يقصر التمثيل على وجه الشبه العقلي التصوري ، بل رأى أنّ ثمة صوراً حسيّة بديعة لوجه الشبه حريٌّ أن يزَّيَّن بها التمثيل . ولكنه التزم بضرورة أنْ يكون وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد.(٤) وهذا الذي

---

* جامعة البلقاء التطبيقية كلية الأميرة عالية الجامعية

** جامعة البلقاء التطبيقية كلية الأميرة عالية الجامعية

1- عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١ ه) :أسرار البلاغة ، تحقيق هـ. ريتر ،مطبعة وزارة المعارف ،إستانبول ،١٩٥٤،وأعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى، بغداد،ط ٢ ،١٣٩٩ه/١٩٧٩م،ص٨٠- ٨٥ .

2 – ابن الأثير(ت٦٣٧ ه): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،مكتبة مصطفى البابي الحلبي ،مصر،١٣٥٨ه/١٩٣٩م،ج١ ، ص ٣٨٨ .

٣- أبو يعقوب السكاكي(ت٦٢٦ه): مفتاح العلوم ،ط١، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ،مصر،١٣٥٦ه/١٩٣٥م،ص ١٦٤.

4- الخطيب القزويني(ت٧٣٩ه): الإيضاح في علوم البلاغة،شرح محمد عبد المنعم الخفاجي، ط٢،مكتبة الكليات الأزهرية،القاهرة،ج٤، ص ٩٠ .

ذهب إليه الخطيب القزويني هو ما استقر عليه البلاغيون فيما بعد، وتابعهم فيه كثير من المحدثين.[1]

أما الإمام الجرجاني . وقد سبق هؤلاء العلماء في الحديث عن التمثيل في فترة لم يكن علم البيان قد استقرّ فيها على ما هو عليه ، وكان لا يزال في طور نموّه . فحين أراد أن يميز التمثيل من التشبيه ، نظر إلى وجه الشبه نظرة تختلف عن المتأخرين ؛ فلم يحفل بكون الوجه مفردا أو مركبا ، أو بعبارة أدقّ لم يقصر نظره على هذه الناحية . على الرغم مما لها من قيمة . بل نظر إلى كنه وجه الشبه نظرةً داخلية، تنسجم ومنهجه في النظر البلاغي(٢) ،إذْ تنبه إلى ما يجلبه من تصوير حسّي ، هو في نظره لبّ التمثيل ، وهو ما يمنحه القيمة الجمالية .

ويرى أن وجه الشبه على ضربين ؛ الأول : يكون وجه الشبه في أمر بيّن لا يُحتاج فيه إلى تأوّل . والثاني : يكون وجه الشبه أمراً محصلاً بضرب من التأوّل . ومثّل للأول بتشبيه الشيء إذا استدار بالكرة ، أو بالحلقة من جهة الشكل . وبتشبيه الخدود بالورد من جهة اللون. وبتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور من جهة الشكل واللون ...إلخ (٣).

ونلحظ في هذه الأمثلة أنّ طرفيّ التشبيه حسيان ، مما يلزم أن يكون وجه الشبه حسياً ، وهو بذلك أمر بيّن لا يُحتاج فيه إلى تأوّل ، وأيّ تأوّل يجري في مشابهة الورد للخد في الحمرة وأنت تراها في الطرفين ظاهرة للعيان ! إلاّ أنها في المشبه به أقوى وأمثل منها في المشبه .

ويندرج تحت الأمر البيّن أن نشبه الأمر المعقول (ما يدرك بالعقل) بمعقول مثله ، كأن تشبه الرجل بالأسد في الشجاعة ، فالشجاعة ليست من الأمور المحسوسة إنما هي أمر عقلي ، وهي موجودة في المشبه والمشبه به ، يدركها العقل دونما حاجة إلى تأوّل . فكلّ ما جاء على هذه الشاكلة هو من باب التشبيه ولا يدخل في باب التمثيل ؛ لأنه لا تأوّل فيه ، بمعنى أن مثل هذه الأمثلة لا تستحث مخيلة المتلقي ، فتجعله يتمثل وجه الشبه شاخصا أمام ناظريه ، بل تكتفي منه بتقريب أمر إلى أمر لوجود المشابهة بينهما ؛ لذلك لم يستحق اسم (تمثيل).

وأمّا الضرب الثاني ، وهو الوجه الذي يتحصّل بضرب من التأوّل ، فيمثّل له بتشبيه الحجة بالشمس في الظهور ، وبتشبيه الألفاظ بالماء في السلاسة ، وبالنسيم في الرقة ، وبالعسل في الحلاوة (٤).

ولا شكّ . هنا . أنّ وجه الشبه (الظهور والسلاسة والرقة والحلاوة) أمرٌ حسيّ في هذا الضرب من التشبيه ، ولكن ترى هل الحلاوة في العسل . مثلاً . كما هي في الكلام ؟ إنّ الحلاوة في العسل وصف حقيقيّ للعسل ، أما في الكلام فلا يوصف بها إلا بعد ضرب من التأوّل ، فمن المعلوم أن الحلاوة مما

---

1 - ينظر فضل حسن عباس : البلاغة فنونها وأفنانها / علم البيان والبديع ، ط١ ، دار الفرقان ، عمان –الأردن،١٩٨٧ ، ص٦٣

2 - محمد بركات أبو علي :معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني ،ط١، دار الفكر ،عمان ،١٩٨٤،ص٧١ . ١١١ .

3 - عبد القاهر الجرجاني ، ص ٨١ .

4 - السابق، ص٨٣ .

تميل إليه النفس ، وتأنس به ، فإذا وُصِف الكلامُ بها فليس المقصود الحلاوةَ ذاتَها،وإنما يريدون ما تقتضيه من ميل النفس وما ينتج عنها من أثر . ومثل هذا لا نجده في تشبيه الخد بالورد في الحمرة ؛ فالحمرة موجودة وجودا حقيقيا في الخد والورد ، أما الحلاوة فوجودها في المشبه به وجود حقيقيّ يدرك بالحاسة ، أما في المشبه فوجودها يحتاج إلى تأول عن طريق إعمال العقل .

وتبرز في هذه المسألة عبقرية الجرجاني ، وكيف أنه تنبه إلى أمر أغفله المتأخرون ، واكتفوا بالنظر إلى شكل وجه الشبه الظاهر من حيث كونُه مفردا أو مركبا ، دون التنبه إلى وجه الشبه الحقيقي أو إلى الأثر الذي ينتج عن وجه الشبه ؛ فالشيخ عبد القاهر الجرجاني وضّح أن ما يقتضيه تشبيه المعقول بالمحسوس من ميل النفس ليس هو وجه الشبه ، وإنما هو لازم وجه الشبه ، وهو أثر ناتج عنه ، لأن وجه الشبه . عنده . صورة حسية تتمثل في الأمر المعقول (المشبه) نتيجة تشبيهه بأمر حسيّ (المشبه به) .(١)

ومن هنا سُمي هذا الضرب من التشبيه تمثيلا ؛ لأنه يمثل الأمور المعقولة ويشخصها ويجعلها ماثلة في أمر محسوس ، أو بعبارة أخرى يقوم التمثيل عند الإمام عبد القاهر الجرجاني على تمثيل فكرة عقلية أو نفسية أو انفعالية أو ما شابه ذلك مما يدرك بالعقل وتجسيدها في صور حسية ، فتشبيه الكلام بالعسل في الحلاوة يُعد تمثيلا ؛ لأن جمال الكلام ، وهو مدرك عقلي ، أصبح عسلا يذوق اللسان حلاوته . وتشبيه الحجة بالشمس في الظهور يُعدُّ تمثيلا ؛ إذ أصبح بيان الحجة شمسا ترى العين جلاءها .

وبالاحتكام إلى المعنى اللغوي لكلمة (تمثيل) نجد أنّ مفهوم الشيخ عبد القاهر للتمثيل أقرب إلى روح اللغة ، إذْ يورد صاحب اللسان معاني متعددة لمادة (مثل) تلتقي في بعضها مع معاني مادة (شبه) وتتباين في بعضها الآخر ، فمن التباين قوله : " والتمثال : الصورة ، والجمع : التماثيل ، ومثّل له الشيء : صوّره حتى كأنّه ينظر إليه ، ... ومثّلت له كذا تمثيلا إذا صوّرت له مثاله بكتابة وغيرها ، وفي الحديث " أشدُّ الناس عذابا ممثل من الممثلين " أيّ : مصوّر " (٢).

وواضح أن الإمام الجرجاني انطلق من هذا المعنى في التمييز بين التشبيه والتمثيل ، فهو يرى أنّ التمثيل إنما سُمي تمثيلا لأنه يمثّل الأمور المعقولة ، ويجعلها شاخصةً ماثلة في أمر محسوس ، تنظر إليه أو تذوقه أو تسمعه أو تتلمسه بيديك، وهو مأخوذ من المثال المنصوب ؛ أيّ من التمثال القائم بين عينيك .

هل أهمل الإمام الجرجاني الصورة المنتزعة من متعدد ؟

تبيّن مما سبق أنّ الإمام الجرجاني جعل ضابط التمييز بين التشبيه والتمثيل هو انتقال المعنى من حيّز المعقول إلى حيّز المحسوس ، ولكن هذا لا يعني أنّه لم يلتفت إلى التركيب ، بل تحدّث عنه حديث المبدع صاحب الذوق الرائع ، فأبرز قيمته الجمالية وأثر هذه القيمة في النفس ، واختلف الجرجاني عن سائر البلاغيين في هذا الأمر ؛ إذ إنهم جعلوا التركيب المعيار الوحيد في التفريق بين

1- محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى ، مكتبة لبنان ناشرون ،١٩٩٧م ص ١٣٨ .
2- ابن منظور(ت٧١١ه) : لسان العرب،دار صادر، بيروت،مادة (مثل) .

التشبيه المباشر والتمثيل ؛ فإن أُخذ وجه الشبه من عدة أشياء فهو تمثيل ، أما الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فلم يجعل التركيب معيارا في التفريق بين التشبيه والتمثيل ، على الرغم من أنّه خصّه باهتمام في الحديث عن التمثيل ، فقد ذكر في معرض حديثه عن تقسيمات التمثيل : أنّ وجه الشبه يؤخذ من الشيء الواحد مثل العسل والشمس والماء والعلم في الأمثلة السابقة ، وقد يؤخذ من جملة أشياء يُضم بعضُها إلى بعض ، كما في قوله تعالى : " مثَل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً " (1).فالشبه مأخوذ من تلك الجملة المكوّنة من الحمار والحمل والأسفار ، وفي هذا المقام يذكر الشيخ أنّ العناصر اللغوية تتداخل وتسبك وتصهر حتّى تكوّن شيئاً واحدا وجديدا ، يختلف في دلالاته التخييلية عما كان عليه قبل التركيب ، وذكر أن هذا الضرب هو الجدير باسم التمثيل ، وربما يكون هذا هو الذي أغرى المتأخرين باعتبار التركيب معيارا في التفريق بين التشبيه والتمثيل .

والذي نلحظه أن نظرة الجرجاني للتشبيه المنتزع من أمور متعددة تكتسب دقة عالية خاصة في الأمثال القرآنية، فقد قدّم الجرجاني نماذج عدة من آيات المثل في القرآن الكريم، وضّح عن طريقها عمق فلسفة التشبيه في مزج الشبه المستخرج بين شيئين، أو أشياء تمتزج وتتفاعل مع بعضها، لتشكل في النهاية شيئاً واحداً، ذا صورة متعددة، وهذا بدوره يشير إلى أروع الخصائص الفنية للتشبيه المركب في المثل القرآني عند انتزاع وجه الشبه من متعدد.٢

القيمة الجمالية للتمثيل :

عني الإمام عبد القاهر الجرجاني بالقيمة البلاغية أو بالأثر الذي يحدثه التمثيل في المعاني المعقولة، عندما يجسّدها في حيّز محسوس، وأظهر قيمة ذلك في الأداء الأدبي ، ورصد أسباب هذا التأثير، ولماذا كان التمثيل مما يشرف به الكلام وينبل.

فهو يقرر أن عدّ وجه الشبه الصفةَ المحسوسةَ مما يزيد الصورة روعةً وجمالاً، لأنّه ينقل المعنى من خفيّ إلى جليّ ، ويأتيك بصريح بعد مكنّى ، ويجسد الخواطر النفسية في صور حسيّة ، تبلغ في التأثير مبلغها . وتأسيساً على ذلك لا ينبغي أن نقصر وجه الشبه على ما تقتضيه الصفة الحسيّة أو على الأثر النفسي الناتج عن هذه الصفة ؛ لأن هذا الأثر ليس هو وجه الشبه ، إنما هو لازم وجه الشبه ، كما يسمّيه الإمام عبد القاهر ، وبهذا نكون قد هدرنا جمال التصوير الحسّي ، الذي هو كنه التمثيل عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ومثال ذلك قول ابن المعتز (٣):

اصبر على حسد الحسود	فإنّ صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها	إن لم تجد ما تأكله

فلا ينبغي أن نقول : إنّ وجه الشبه هو الفناء في الطرفين ؛ فالحسود الذي لم يجد من يناكفه ، سيعود حسده وبالاً عليه ويؤدي إلى فنائه ، وكذلك النار التي لم تمد بالحطب، فستأكل

1- سورة الجمعة ،الآية ٥ .
2- ينظر محمد حسين علي الصغير: الصورة الفنية في المثل القرآني ، دار الرشيد، بغداد،١٩٨١ ،ص١٦٩ .
3- ابن المعتز: ديوان ابن المعتز،دار صادر ،بيروت ،١٩٦١، ص ٣٨٩ .

نفسها ومن ثمّ تنتهي ؛ فلذلك لا يجوز أن نقصر وجه الشبه على هذه الصفة (الفناء بسبب انقطاع المدد) لأن في ذلك إفساداً للصورة وقتلاً لجمالها، وبطلاناً لتسمية ذلك تمثيلاً ؛ إذ ضاع بهذا التأويل التجسيد الحسّي للصورة ، وبقي وجه الشبه العقلي على حاله ، فلم يظهر مشخصاً وماثلاً للعيان كما يفترض في هذا النوع من التشبيه ، لذلك يرى الشيخ الجرجاني في توجيه قول ابن المعتز السابق ، أن وجه الشبه هو ما تراه عينك في هذه النار التي لم تمدّ بالحطب وهي تأكل نفسها، فتصبح النار بذلك صورة مشخّصة ماثلة أمام ناظريك، أما الفناء بسبب انقطاع المدد فهو لازم وجه الشبه وليس وجهَ الشبه ذاتَه . ولازم وجه الشبه هذا هو ما عدّه المتأخرون وجه الشبه ، ولم يلتفتوا إلى التأول الذي عناه الإمام عبد القاهر، وبذلك أسقطوا الحديث عن التصوير الحسّي الذي هو لبُّ التمثيل عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني.

وتتبدى روعة التجسيد الذي يحدثه تشبيه التمثيل في قول الشاعر صالح بن عبد القدوس:

وإن مَن أدّبته في الصبا　　كالعود يُسقى الماءُ في غرسه

حتى تراه مورقاً ناضراً　　بعد الذي أبصرتَ مِن يُبْسِه

فالشاعر ،بحسب نظرة الجرجاني، سلك طريق تشبيه التمثيل ليجسّد المعاني والأفكار التي يريد معالجتها[1].فغاية الشاعر من التشبيه السابق ليست ذِكر ما يُسقى وقت حاجته للماء، ونماء هذا النبات وازدهاره، وإنما غايته تجسيد أمر معقول وهو أثر التأديب في نفس الولد في مرحلة الصبا،وجعله مجسدا شاخصاً للعيان ، فعقد مقارنة بين أهمية التأديب في هذه المرحلة وأهمية الماء للنبات في مرحلة الغرس ، وجاءت صورة النبات وسيلة لإبراز غاية الشاعر وفكرته ، فشبّه الشاعر حال الصبي الذي يُتعهّد بالتأديب والرعاية في مرحلة الصبا ، وهو الوقت الصالح لصقل شخصية الطفل وتهذيبها ، بحال العود من النبات الذي يُغرس ويُتعهد بالريّ والرعاية حتى يزدهر وينمو ، فوجه الشبه الحاصل من انعقاد أطراف التشبيه هو بلوغ الغاية المنشودة من الطرفين ، فكلٌّ من الطرفين يُجدي فيه التعهد والرعاية ، وهذا الوصف الجامع للطرفين أمر تصوري لا صفة حقيقية في المشبه به ، فقد شبّه المعقول بالمحسوس ،[2] فأصبح الشبه شاخصاً أمام ناظريّ المتلقي يدركه بحسه، ولا شكّ أنّ ذلك يحصل بعد التأول وإعمال الفكر.

ولنضرب مثلاً آخر على جمال الصورة المستوحاة من تجسيد المعقول ونقله على ما يُدرك بالحسّ وهو بيت الشعر المنسوب إلى قيس بن الملوح:

فأصبحتُ من ليلى الغداة كقابضٍ　　على الماء خانته فروج الأصابع

---

[1] محمد جابر الفياض : الأمثال في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ،ط٢ ، ١٩٩٥ ، ص١٢٤.

[2] علي البدري : علم البيان في الدراسات البلاغية ، القاهرة ،١٩٨٤ ، ط٢ ، ص ٤٣.

فقد جسّد الشاعر في هذا البيت عن طريق التمثيل خيبة أمله من نوال المحبوبة ، وجعَلَها شاخصة أمام المتلقي في صورة حسية بصرية يراها بناظريه ، وهي صورة الرجل الذي يحاول قبض الماء فيتسرب من خلال فروج الأصابع فلا يتمكن من شيء سوى البلل.١

وعملية تجسيد المعقول وتشخيصه عملية نفسية بحت غايتها التأثير في نفس المتلقي ، وإثارة انفعاله المناسب ، وذلك عن طريق تشخيص المعاني في صور حسية ،يُخيّل للمتلقي أنها متحدة بها ومتمثلة فيها ، فالتشخيص أقدر على فعل التمثيلات في ذهن المتلقي ، وإحداث الاستجابة المطلوبة.٢ يقول الجرجاني في هذا:" فأول ذلك وأظهره ، أن أُنس النفوس موقوف على أنْ تُخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنّى ، وأن تردّها في الشيء تُعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمّا يُعلم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع لأنّ العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة ، يَفْضُل المستفاد من جهة النظر والفكر في قوة الاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام"٣

ومن التمثيلات التي أوردها الجرجاني للكشف عن جماليات الصورة المشخصة الصورة الواردة في بيت سعد بن ناشب:

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

فيرى الجرجاني أنّ سحر الصورة يكمن في هذا التشخيص الذي "أراك العزم واقفاً بين العينين، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك باباً من العين"٤ فكان التأثير في النفس أبلغ.

دور المتلقي في إظهار جماليات الصورة :

حظيت إشارات الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى دور المتلقي في تَمَثُّل الصورة باهتمام الدرس النقدي الحديث، إذ اهتمّ النقاد بدور المتلقي في فهم النص والإبداع فيه، عن طريق النظرة المتأملة في النص التي تتجاوز ظاهر الألفاظ إلى روحها وإيحاءاتها، فغدا لديهم ما يُعرف بنظرية التلقي التي أخذت تتطور في الفكر النقدي، فأصبح النص يختلف باختلاف القارئ المتلقي ، فكلّ متلقٍ يخلع على النص من ذاته وعوالمها الخاصة، فيغدو مبدعا جديدا.

وبهذا لم تعد عملية الإبداع مقتصرة على المؤلّف ، بل إن القارئ يشارك المؤلف في التفاعل مع النص والإبداع فيه ، فالعملية الإبداعية متشابكة ومعقّدة بحيث لا يمكن أن تحسم بالولاء لسلطة النص وحده، أو لسلطة المؤلف وحده ، بل لا بدّ من سلطة ثالثة تتكامل مع السلطتين الأخريين وهي سلطة المتلقي الذي يلج إلى عمق النص ، فيكشف عن أمور لم يصرح بها النص مباشرة.٥

---

1 عبد المجيد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤ ، ص ١٨٦.
2 السابق، ص١٢٨.
3 عبد القاهر الجرجاني ، ص١٢١.
4 السابق ، ص١٢٨.
5 فضل ثامر : من سلطة النص إلى سلطة القارئ ، مجلة الفكر العربي ،ع٤٩ ، ١٩٨٨،ص ٩٨

وبهذا أخذ المتلقي دوره الفاعل في عملية الإبداع بوصفه ركناً مهماً من أركان العملية الإبداعية ، فهو الذي يمنح العمل الإبداعي خلوده ويحفظ القيمة الجمالية للنص.١ إذ بتنوع المتلقين وتغيرهم تبعا لتغير الزمان والمكان تتعدد قراءات النص الواحد فيبقى حيّاً ، ويتجدد مع كل فهم. فالمتلقي النبيه حينما يندغم مع النص يضفي عليه من سمات روحه ومن حصيلة تجاربه وخبراته النفسية والاجتماعية والذوقية.

ودور المتلقي هذا بدا واضحا في نظرة الجرجاني إلى مفهوم التمثيل ، فذكر الإمام الجرجاني أنّ وجه الشبه قد يؤخذ من جملة أشياء يُضمُّ بعضها إلى بعض، وهو ما اصطلح المتأخرون على تسميته التمثيل أو التشبيه التمثيلي ، وقد أولى الإمام هذا النوع من التشبيه عناية كبيرة ، وبيّن دور المتلقي في تذوقه ؛ إذْ يقيم المتلقي الذكيّ في نفسه صورة يفكك فيها أجزاء التركيب ، ويمحو دلالاته الإفرادية، ثم يعيد سبكها في صورة جديدة تختلف تبعاً لطبيعة المتلقي .

يقول في ذلك : " فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر ، حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حالة الإفراد ، لا سبيل الشيئين يجمع بينهما ، وتحفظ صورتهما " (٢).

ويؤكد الإمام بيان هذه المسألة في التعامل مع صور المفردات ، وشخوص الدلالة الإفرادية للكلمات في أثناء معالجته للآية الكريمة : " مثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً "(٣) . فيقول : " حتى يكون القياسُ قياسَ أشياء يبالغ في مزاجها حتى تتحد ، وتخرج عن أن تعرف صورة كلّ واحد منها على الانفراد ، بل تبطل صورها المفردة ، التي كانت قبل المزج ، وتحدث صورة خاصّة غير اللواتي عهدت ، وتحصل مذاقة لو فرضتُ حصولها لك في تلك الأشياء من غير امتزاج فرضتَ ما لا يكون، ولم يتمّ المطلوب، ولم تحصل النتيجة المطلوبة"(٤).

يبدو جلياً في هذين النصين إلحاح الإمام الجرجاني على ثلاث قضايا مهمة في بناء الصورة هي:

الأولى: المزج ، فذكر لفظة (يمزج) واستبعد لفظة (يجمع) ؛ فلا يمكن أن تتكون لديك صورة إذا اقتصرت على جمع الأجزاء ، إنما تتكون من المزج أو المبالغة فيه ، حتى تصبح شيئاً واحداً وجديداً ، لا تلاحظ فيه حال المفردات ، التي كوّنت هذا الكلّ، وإنما تمحى أوصاف الجزء ، وكأنّها تفاعلت تفاعلاً كيماوياً ، ذهبت فيه خواصّ المادة الداخلة في التركيب، ونتج من هذه المواد المتفاعلة تركيبة لغوية جديدة هي التي تعتبر في الدلالة البلاغية.

الثانية: محو الدلالات الإفرادية، وهذه المسألة متصلة اتصالاً شديداً بسابقتها، فيرى الإمام الجرجاني أنّ هذا المزج تبطل فيه صور المفردات اللغوية، ويسلب منها دلالاتها قبل المزج ، ويكسوها دلالاتٍ خاصة جديدة تكون ضرورية في الإبانة ، وبغيرها لا يتمّ المطلوب.

---

[1] محمد مبارك : استقبال النص عند العرب ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩ ، ص ٥٢

[2] – عبد القاهر الجرجاني ، ص ٩٠ .

[3] – سورة الجمعة ،الآية ٥ .

[4] – عبد القاهر الجرجاني ، ص ٩١ .

الثالثة: مجهود المتلقي في إبداع الصورة ، يرى الإمام الجرجاني أنّ تفكيك أجزاء التمثيل ثمّ إعادة مزجها لتكوين صورة جديدة ، هو من عمل القارئ المتدبر أو البلاغي المتيقظ ، لأن الألفاظ المكتوبة والمقروءة هي هي ، وإنما يحدث هذا التفاعل عند القارئ المتأمل الذي ارتفع عن طبقة العامة في التعامل مع اللغة ، وهنا يشير الإمام إلى الفروق الفردية بين المتلقين في إبداع الصورة ، فيرى أن هذا مما لا يستوي فيه " اللبيب اليقظ ، والمضعوف المغفّل " (١).

فالمتلقي اللبيب يبدع في النص ، ويشكل صوره ومفرداته ، وينزعها من دلالاتها القديمة، ويصوغ منها صوراً أخرى ، بعد أن كانت هذه الصور متوارية وراء هذه المفردات المتناثرة، وإبداع المتلقي اللبيب هو كشف لخبايا النص وأسراره التي أودعها فيه صاحبه ، فهو إبداع يتوخى كشف إبداع ، وهذا محتاج إلى متلقٍ قادر على تشكيل صور كلية من مفردات جزئية ، فيغدو هذا المتلقي مبدعاً جديداً للنص لا يقل عن المبدع الأول.

بدا لنا مما سبق أن الإمام عبد القاهر الجرجاني يميّز بين نوعين من المتلقين: أحدهما المضعوف المغفّل وهو الذي يقف عند ظاهر النص ولا يتآلف معه ، ولا يوظف خبراته النفسية والاجتماعية والذوقية في استنطاق النص ، فهو يركن إلى النظرة العجلى ؛ لأنه قليل الصبر على الجهد والتأمل. أما النوع الثاني من المتلقين ، فهو اللبيب اليقظ الذي يتفاعل مع النص ويخلع عليه من روحه وخبراته وتجاربه ، وهذا النوع من المتلقين هو الذي استحوذ على اهتمام الجرجاني في إدراك مكنونات النص، وفي استخراج الدر الكامن في سبر النص. وبهذا ينكشف أمام ناظريّ هذا المتلقي اللبيب جماليات الإبداع، يقول الجرجاني: "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى فكان موقعه في النفس أجلّ وألطف وكانت به أضنّ وأشغف"٢

إذن الإبداع لا يتأتّى للمتلقي المضعوف المغفّل ؛ لأنه يحتاج إلى طلب وحنين واشتياق ومعاناة ، وهذه لا تتوفر إلا للمتلقي اللبيب المكابد المتأمل. ومن هنا يرى الجرجاني أنّ بلاغة التمثيل لا تتجلّى إلا بخفاء العلاقة بين طرفيْ التشبيه ، لكي تستحثّ عقل المتلقي وقدرته على استنباط مواطن انتقال الدلالة من حيّز المعقول إلى حيّز المحسوس ، فيراه محسوساً شاخصاً أمامه بعد أن كان مجرداً ، ويدركه مفصّلا بعد أن كان مجملاً.

ولا يخفى أنّ هذه الأمور التي في نظرة الإمام الجرجاني إلى مفهوم التمثيل، نجد لها مساحة واسعة في جهود النقاد المحدثين(٣) ، فكأنّ نظرات الإمام إلى تفكيك أجزاء التركيب في

---

1 - السابق ، ص ٨٤ .

2 عبد القاهر الجرجاني ، ص١٨٠

3 ناظم خضر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، ط ١،١٩٩٧،ص١٣٣. وجون ستروك(تحريره) : البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا ، ترجمة محمد عصفور ،سلسلة عالم المعرفة ،٢٠٦ ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، ص ٢٠٧ . و محمد علي الكردي: ظاهرة التلقي في الأدب، مجلة علامات في النقد المجلد ٨ عدد ٣٢ النادي الأدبي الثقافي بجدة ص١٠- ٢٣ . وإبراهيم السعافين :جماليات التلقي في الرواية العربية المعاصرة ، مجلة فصول ، م١٦ ،ع٣ ،١٩٩٧م.

التمثيل ومحو دلالاتها الإفرادية وإعادة مزجها بصورة جديدة يفيض عليها المتلقي من نفسه ومشاعره ، منّلت بذور الفكر النقدي الحديث في هذا المجال.

معالم تربوية في تحليل الجرجاني للتمثيل:

تتكشف عبقرية الجرجاني عند مقارنة آرائه في إدراك القارئ لجماليات التمثيل، بنظريات التربويين في الإدراك ، فبنظرة متأنية إلى نظريات التعلم والتعليم في التربية، التي استقت مبادئها من علم النفس، وتحديداً ما يتعلق بالإدراك، نستطيع أن نلحظ ما كان من إلماحات عبد القاهر الجرجاني إلى هذه المبادئ ، نخصُّ منها[1] :

١. حديثهم عن ضرورة التدرج من الكلّ إلى الجزء.(الجشطالت)
٢. حديثهم عن ضرورة مراعاة الفروق الفردية لدى المتعلمين.
٣. حديثهم عن ضرورة التدرج من المحسوس إلى المجرد.

هذه بعض المبادئ القارة المستقرة لدى التربويين في مجال التعليم، التي أثبتها البحث النظري والتجريبي في ميدان علم النفس، ففيما يتعلّق بالمبدأ الأول يرى أصحاب النظرية (الجشطالتية)(٢) أنّ الفرد يلجأ إلى تنظيم مدركاته على صورة أشكال وعلاقات تمكّنه من فهم العالم من حوله ، ويرون أنّ الخطوة الأولى في التعلم المعرفي هي عملية الإدراك أو التعرف على الأحداث في البيئة باستخدام الحواس ، حيث يدرك الفرد الأشياء إدراكاً كلياً ، ثم يبدأ بالتفصيل ، ويضربون لذلك أمثلة من ذلك : أنك تبصر الشجرة – مثلاً – كلاً متكاملاً ، وبعد إعادة النظر تبدأ بإدراك فروعها وأغصانها وأوراقها وثمارها. ومن القضايا الأساسية في النظرية الجشطالتية قضية الاهتمام بالاختلاف بين الكليات والمجموع الكلي للأجزاء المكوّنة لهذه الكليات ، فيرى أصحاب هذه النظرية أنّ الكليات تتسامى فوق المجموع الكلي للأجزاء المكوّنة لها ، فالنوع الأول من الكليات يشبه كومة من "الطوب" مثلا ، أما النوع الثاني فيشبه المنزل المكوّن من مجموع "الطوب" ، وهو يختلف كل الاختلاف عن مجموع الأجزاء المكونة له.٣ وقد انطلق التربويون من هذه النظرية في تعليم الطفل القراءة ، إذْ يعرضون عليه بدايةً الجملة التامة مقترنةً بصورة دالّة عليها ، ثم يسلطون الضوء على الكلمة المقصودة وصولاً إلى تجريد الحرف موضوع التعلّم ، فيكون إدراك الطفل للحرف قد تدرج من العام وهو الجملة إلى الخاص وهو الكلمة ، ثم إلى الأخصّ وهو الحرف موضوع التعلم.٤

---

[1]–ينظر:(George M.Gazda) جورج م. جازدا: نظريات التعلّم والمنهج المقارن ، ترجمة علي حسين حجاج ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والآداب – الكويت رقم٧٠ ، ص٢٠٠- ٢٠١ ، وينظر بصورة عامة : محمد جاسم محمد : نظريات التعلم ، ط١، دار الثقافة،عمان،٢٠٠٦م ، ومحيي الدين طوق ويوسف قطامي وعبدالرحمن عدس: أسس علم النفس التربوي، ط٢، دار الفكر، عمان،١٤٢٢/٢٠٠٢م.

[2] – فتحي مصطفى الزيات : سيكولوجية التعلم بين المنظور الارتباطي والمنظور المعرفي، ط٢ ، دار النشر للجامعات ، القاهرة ، ١٤٢٤/٢٠٠٤م ، ص ٢٤١- ٢٦٦ ، ومحمد جاسم محمد ، ص ١٥١- ١٦٣ .

[3] ينظر: George M.Gazda جورج م. جازدا ، ص ٢٠١

4 علي أحمد مدكور ، تدريس فنون اللغة العربية ، دار الشواف –مصر ،١٩٩١، ص١٥٥- ١٥٦.

وقد سبق عبد القاهر أصحاب نظرية (الجشطالت) إلى مثل هذا القول ، عندما تحدّث عن مسألة التفصيل والإجمال ، فقد بنى أفكاره في هذه المسألة على أسس نفسية ، تتمثل في أنّ العقل يدرك الأشياء جملة أسهل من إدراكها مفصّلة ، وأنّ إدراك الجملة أسبق إلى النفس من إدراك التفصيل ، يقول الجرجاني:"الجملة أبداً أسبق إلى النفس من التفصيل ، وأنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل ولكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ولذلك قالوا: النظرة الأولى حمقاء. وقالوا: لم ينعم النظر ولم يستقصِ"[1]. نلحظ هنا كيف ركّز الجرجاني على ضرورة انتقال المتلقي المبدع من الإجمال إلى التفصيل ، وذلك بتجاوز النظرة العجلى إلى النظرة المتأملة ؛ لأنّ جمال التصوير الأدبي لا ينكشف إلا بتأمل دقائق الأشياء ، وبالتعمق في التفاصيل ، وبإدراك الفروق الخاصة بين الأشياء. ولا تتوقف مسألة التفصيل على المتلقي وحده، بل تشمل المبدع الأول للنص ، فالمبدع الحاذق يعمد إلى التفصيل ، ويستحثّ متلقيه على الغوص في دقائق تفاصيله المركوزة ، فيكتشفها ويبدعها من جديد.

وكذلك يتّضح تنبّه الإمام عبد القاهر إلى الأسس النفسية التي يقوم عليها الإدراك حينما بيّن السبب في سرعة بعض التشبيه إلى الفكر ، وإباء بعضه الآخر ، إذْ لا ينال إلاّ بعد قطع مسافة إليه ، وعمقٍ في التفكير ، فيعلل ذلك بأنّ الجملة دائما أسبق إلى النفوس من التفصيل ، فترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ، وهكذا الحكم في السمع وغيره من الحواس ، والأمر في القلب كذلك ، تجد الجمل دائما تقع في الخاطر أولاً ، وترى التفاصيل لا تحضر إلاّ بعد إعمال الروية ؛ فالاشتراك في الصفة إذا كان من جهة الجملة بحيث لا يشوبه شيء من التفصيل ، نحو أنّ كلا الشيئين أسود ، فهو يقلّ عن أن يُحتاج فيه إلى إعمال الفكر ، فإن دخل في التفصيل شيء نحو : أن هذا السواد صافٍ برّاق ، احتاج بقدر ذلك إلى إعمال الفكر ، فإنْ زاد تفصيله بخصوصية تحتاج إلى فضل تأمّل ، ازداد الأمر قوة في اقتضاء الفكر [2].

ومما يتصل بهذه النقطة أنّ علماء النفس جعلوا دقة التفاصيل في الرسم واحداً من مقاييس الذكاء لدى الأطفال ، فمثلاً لو كلّفنا مجموعة من الأطفال رسم يد إنسان ،فسنجد بعضهم يرسم اليد دون تفصيل الأصابع ،وبعضهم يبرز الإبهام وحده ، وبعضا آخر يفصّل الأصابع الخمس، ويزيد آخرون الأمر تفصيلاً بإبراز عُقل الأصابع ، فكلما زاد التفصيل دلّ على زيادة نسبة الذكاء.

وحول هذا المعنى يذكر الجرجاني في حديثه عن التشبيه الذي يوغل في التفاصيل ، أنه بمقدار لمح هذه التفاصيل يتفاضل البلغاء ، ويمكن الموازنة بينهم، وتفضيل البليغ الذي يتنبّه إلى التفاصيل.أمّا إدراك الأمور جملةً، فهو مما تستوي فيه الأقدام.[3]

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، ص١٦٠

[2] السابق ، ص ١٦٠.

[3] السابق ، ص ١٦٠ .

أما المبدأ الثاني وهو الفروق الفردية، فنقصد به تلك الصفات التي يتميز بها كل إنسان عن غيره من الأفراد سواء كانت تلك الصفة إدراكية أم انفعالية أم جسمية أم في سلوكه الاجتماعي. ويُعلي التربويون من أهمية إدراك الفرود بين الأفراد وضرورة مراعاتها في التعامل مع المتعلمين ، فرعاية الفروق الفردية من أسس الصحة النفسية والتربية السليمة التي تقوم على الاعتراف بالفردية وأهمية كشفها وحسن استغلالها وتوجيهها إلى أقصى الحدود الممكنة لتكامل الحياة ونجاحها، فالتربية السليمة تعتبر كل فرد غاية ووسيلة في حد ذاته ، ويجب أن تستغل مواهبه لتحقيق مبدأ التكامل والتضامن. ولا شك أنّ معرفة الفروق الفردية تساعد الفرد على تفهم نفسه واستغلال مواهبه ومعرفة إمكاناته ، ولعل الإنسان ولا سيما الراشد إذا كان مثقفا يستطيع أن يفهم كثيرا من إمكانياته وان يسعى لاستغلالها بطريقة ايجابية يضمن من خلالها النجاح.١

والذي نلحظه أنّ الجرجاني أعطى هذا المبدأ التربوي قيمة عليا في إدراك جماليات التمثيل وروعة الصورة، فقد ألمحنا في الصفحات السابقة إلى ما كان من إشارات عبد القاهر الجرجاني في هذا المجال في غير موضع ، خاصة في أثناء حديثنا عن دور المتلقي في إبداع صورة تشبيه التمثيل ؛ فقد ظهر أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني كان يقرر في حديثه عن المتلقين ، أنهم لا يستوون في إدراك الصورة ، أو في إعادة تشكيلها وتذوقها ، فكان يشير إلى صنفين من المتلقين : متلقٍ لبيب يقظ ، قادر على كشف خبايا النص والإبداع ، أما الصنف الآخر فهو المضعوف المغفل ٢.

ومن المؤكد أن هذا التفاوت بين المتلقين يؤدي إلى تباين في إدراك الصورة والنفاذ إلى جماليات تشبيه التمثيل . وهو الأمر الذي أعلى من شأنه التربويون المحدثون ؛ إذ جعلوا من ركائز التعلم مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين ، بحيث تقدم المعلومة للمتعلمين بطرق متنوعة تتناسب وقدراتهم الإدراكية.

أمّا المبدأ الثالث وهو ضرورة التدرج من المحسوس إلى المجرد فقد احتفى التربويون به كثيراً ، فجعلوا من قواعدهم العامة في التعليم ضرورة التدرج من المحسوس إلى المجرد ، فيرى "برونر" أنّ المتعلّم ينظم معارفه من خلال التدرج من مرحلة النشاط العملي الذي يُدرك بالحواس ، إلى مرحلة النشاط التصوري شبه المحسوس ، وفي النهاية يصل إلى القدرة على ممارسة النشاط الرمزي الذي يُدرك بالتفكير المجرّد.٣ وقد اعتمدوا في ذلك على مبادئ علم النفس الذي يقرر أنّ الفرد لا يدرك المعاني إلاّ بمدلولاتها الحسية ، وهذا ما يحدث معنا بالفعل ؛ فهذه الألفاظ التي نختزنها في ذاكرتنا مرتبطة بصور ذهنية اشتقت من صورها الحسية ، ومنها اكتسبت الدلالات المقترنة بتلك الألفاظ ، وإلاّ فإنّ المدركات المجردة تكون مجرد ألفاظ لا معنى لها.

وقد أشار الإمام الجرجاني إلى الانتقال من المحسوس إلى المجرد ، وجعله سبباً قويا ظاهرا في جمال التمثيل وفي بلوغه الغاية في التأثير في النفوس ، فقال: " فأول ذلك وأظهره أنّ أُنسَ النفوس

---

[1] سليمان الخضيري : الفروق الفردية في الذكاء، دار الثقافة للطباعة والنشر- القاهرة ، ١٩٨٩\١٩٩٠ ، ص١٧- ١٨

٢ عبد القاهر الجرجاني ، ص ٨٤ .

[3] علي سليمان السيد : نظريات التعلم وتطبيقاتها في التربية ، مكتبة الصفحات الذهبية ،٢٠٠٠م، ط١،ص٢٠١- ٢٠٤

موقوف على أنْ تخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنّى ... أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ؛ لأنّ المستفاد من طرق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ... ومعلوم أنّ العلم الأول أتى النفس أولا عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والرويّة ، فهو إذن أمسّ بها رحماً ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمةً "(١) .

يمثل هذا النص تواردا ظاهرا بين كلا المذهبين : مذهب عبد القاهر في تأكيده أسبقية الحسّ وأفضليته في إدراك الأشياء والولوج إلى جمالها ؛ فالتمثيل حينما يقوم بتجسيد صورة عقلية في صورة حسية فإنّ ذلك يسهم في تضافر الفكر والحواس معاً في كشف جمال التصوير ، ومذهب التربويين في أهمية التدرج من المحسوس إلى المجرد في تعليم الناشئة ، لأنّ المدرك بالحواس أثبت في النفس من المدرك المجرد.

خاتمة

مثّل مفهوم عبد القاهر الجرجاني للتمثيل شاهداً من شواهد العبقرية الفذة التي تمتّع بها هذا الإمام المبدع ؛ إذْ تجلّت فيه ملامح النظر الدقيق الذي يتجاوز ظاهر الأمور إلى سبر أغوارها ، والغوص في قيعانها للكشف عن مكنون أسرارها . ولا شكّ أنّ الإمام عبد القاهر قدّم للقارئ أداةً فاعلة تسهم في صقل ذوقه ، وتجعله أكثر قدرة على كشف جماليات التمثيل ، وما يحمله من صور بديعة ، من خلال تركيزه على نقل الصور الذهنية للتشبيهات والتمثيلات إلى صور حسيّة تتجاوز الفكر كوسيلة إدراك إلى إشراك الحواس في تلمّس جماليات التصوير .

وأظهر هذا المفهوم سعة أفق الإمام عبد القاهر ؛ ففيه إشارات نقدية حصيفة عدّها النقاد المحدثون فتحاً عظيماً في مجال دراسة النصوص وتحليلها ، من ذلك حديثه عن تفكيك التركيب ثم إعادة بنائه بناءً جديدا ، بحيث يخلق مذاقاً غير الأول، وحديثه عن دور المتلقي في الإبداع في التصوير الذي يجلبه التمثيل ، إذْ يصبح القارئ مبدعاً جديداً .

يضاف إلى ذلك ما كان من توارد بين الإمام عبد القاهر الجرجاني والتربويين في حديثهم عن ضرورة مراعاة الفروق الفردية ، وحديثه عن التفاوت بين البلغاء في تأوّل وجه الشبه العقلي ، وكذلك حديثهم عن ضرورة التدرج من الكل إلى الجزء ، ومن المحسوس إلى المجرد ، وحديثه عن أسبقية الجملة على التفصيل في إدراك الأمور ، وأسبقية الإدراك بالحس على الإدراك بالفكر المجرد ، وتنبهه إلى التفاوت في إدراك التفاصيل بين البلغاء ، وكيف يشكل ذلك التفاوت مقياساً للفطنة والتفاضل عنده ، ومقياساً للذكاء عند التربويين .

هذا بعض ما استخلصناه من شواهد العبقرية الكامنة في حديث الشيخ عبد القاهر الجرجاني عن تشبيه التمثيل ، ويبقى حديثه ذاك مفتوحاً لأيّ قارئ ليستخلص منه مزيداً من تلك الإشارات المركوزة فيه أو التي تهوّم في فضائه .

---

1 - عبد القاهر الجرجاني ، ص ١٠٨- ١٠٩.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إبراهيم السعافين : جماليات التلقي في الرواية العربية المعاصرة ، مجلة فصول ، م١٦ ،ع٣ ،١٩٩٧م.
٣. ابن الأثير ضياء الدين نصرالله بن محمد(ت٦٣٧ ه): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ،مصر،١٣٥٨ه/١٩٣٩م.
٤. ابن المعتز عبد الله أبو العباس: ديوان ابن المعتز، دار صادر ودار بيروت ، بيروت،١٩٦١م .
٥. ابن منظور محمد بن مُكَرّم بن علي جمال الدين (ت٧١١ه) : لسان العرب ، دار صادر، بيروت.
٦. جورج م. جازدا(George M.Gazda): نظريات التعلّم والمنهج المقارن ، ترجمة علي حسين حجاج ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والآداب – الكويت رقم٧٠.
٧. جون ستروك (تحريره) : البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا ، ترجمة محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة ، ٢٠٦ ، ١٤١٦ه/ ١٩٩٦م .
٨. الخطيب القزويني(ت٧٣٩ه) : الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح محمد عبد المنعم الخفاجي، ط٢ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .
٩. السكاكي سراج الدين أبو يعقوب(ت٦٢٦ه): مفتاح العلوم ، ط١، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، مصر، ١٣٥٦ه/١٩٣٥م.
١٠. سليمان الخضيري : الفروق الفردية في الذكاء ، دار الثقافة للطباعة والنشر- القاهرة ، ١٩٨٩\١٩٩٠.
١١. عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١ ه) : أسرار البلاغة ، تحقيق هـ. ريتر ، مطبعة وزارة المعارف ، إستانبول ،١٩٥٤ ، وأعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ، بغداد ، ط ٢ ، ١٣٩٩ه/١٩٧٩م .
١٢. عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١ ه) : أسرار البلاغة ، تعليق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ،القاهرة ، ودار المدني ، جدة ، ط ١ ، ١٩٩١ م.
١٣. عبد المجيد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ط١ ، ١٩٨٤.
١٤. علي البدري : علم البيان في الدراسات البلاغية ، القاهرة ،١٩٨٤ ، ط٢.
١٥. علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية ، دار الشواف –مصر،١٩٩١.
١٦. علي سليمان السيد : نظريات التعلم وتطبيقاتها في التربية ، مكتبة الصفحات الذهبية ،٢٠٠٠م ، ط١.
١٧. فتحي مصطفى الزيات : سيكولوجية التعلم بين المنظور الارتباطي والمنظور المعرفي ، ط٢ ، دار النشر للجامعات ، القاهرة ، ١٤٢٤ه/٢٠٠٤م .
١٨. فضل ثامر :من سلطة النص إلى سلطة القارئ ، مجلة الفكر العربي ، ع٤٩ ، ١٩٨٨.
١٩. فضل حسن عباس : البلاغة فنونها وأفنانها / علم البيان والبديع ، ط١ ، دار الفرقان ، عمان –الأردن ، ١٩٨٧.
٢٠. محمد بركات أبو علي : معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني ، ط١، دار الفكر ،عمان ،١٩٨٤م .
٢١. محمد جابر الفياض: الأمثال في القرآن الكريم ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض ، ط٢.

٢٢. محمد جاسم محمد : نظريات التعلم ، ط١ ، دار الثقافة ، عمان ، ٢٠٠٦م.
٢٣. محمد حسين علي الصغير : الصورة الفنية في المثل القرآني ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١.
٢٤. محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى ، مكتبة لبنان ناشرون ،١٩٩٧م .
٢٥. محمد مبارك : استقبال النص عند العرب ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر ، بيروت ، ط١ ،١٩٩٩.
٢٦. محيي الدين طوق ويوسف قطامي وعبدالرحمن عدس: أسس علم النفس التربوي ، ط٢ ، دار الفكر ، عمان ، ١٤٢٢/٥/٢٠٠٢م.
٢٧. ناظم خضر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي ، دار الشروق ، ط ١ ،١٩٩٧.